القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

عبد الرحمن وفطروف

١٤

عبد الحميد جودة السحار

١

ماتَ الحَكمُ ، فانتَهَزَ عمُّه الفُرصــةَ ليعـاوِدَ بطلـبِ الإِمارة ، فثار على عبدِ الرحمن ، الـذى تولَّـى الأمـرَ بعهدٍ من أبيه ، وأطلقَ الفِتنــةَ فى الأندلس . فوجدَ الفرنسيُّونَ أن يغتنمُوا هـذه السَّانحة ، لـيزحَفُوا إلى كتلُونيا وأرَغون ؛ فسارتْ جيوشُهم تُحرق وتُدمِّر ، بينـا عبـدُ الرَّحمـنِ فـى شُغْلٍ بتسكينِ الثَّورة ، التـى يُحاوِلُ أن يُشعِلَها عمُّ أبيه .

وثارت مدينةُ مـارَدة علـى عبـدِ الرَّحمـنِ ، فكتـب إليهم الإمبراطور ، لُويسُ بـنُ شارلْمان ، يُحرِّضُهـم

على الثّبات ، حتى يخفَّ لنَجْدَتِهم . وعقَدَ مؤتَمرًا عامًّا فى إكسلاشابِل ، حضرَه أمراءُ البِلادِ المجاورةِ لإسبانيا ، وأعلن عزمَه على غَزوِ الأَندلُس .

كان فى إكسْلاشابِل قائدٌ قُوطِىّ ، كان قد انضمَّ إلى الإمبراطور ، فلمَّا سمِعَ بعزْمِه على غزوِ الأندلُس، انسلَّ خِفية ، وانطلَقَ إلى كتالُونيا وأرَغُون ، يثِيرُ الأهالِى على الإمبراطورِ القادمِ للغزوِ والقِتال ، واستولَى على مدينةِ أشُونَة ، واجتاحَ البِلادَ التى كان الفرنْسِيُّونَ يحتلُّونَها ، ثمَّ أرسلَ يستَنجِدُ أميرَ قُرطُبة .

أبطأ الأميرُ عبد الرَّحمنِ فى إرسالِ المددِ إليه ، فذهبَ القائِدُ القُوطِىُّ بنفسِه إلى قُرطبة ، يحُثُّ الأميرَ على الإسراعِ فى التَّعبِئَةِ والنَّجدة . فسَرَّحَ

عبدُ الرّحمنِ معه جيشًا ؛ فراح الجيشُ ينطلِقُ حثيثا ، بينما كانَ جيشُ الفَرنسِيِّينَ يسيرُ هَونا ، فوصَل الجيشُ الإِسلاميُّ إلى برشلُونة وجيرونَة واجتاحَهُما .
وانطلَقَ عبدُ الرّحمنِ إلى مارِدَة ، التى طلبتْ عَونَ الفَرنسيِّين ، وضيّقَ عليها الحِصارَ ثلاثَ سنوات ، حتّى خرَّت ساجِدةً تحتَ أقدامِه .

٢

كان الإِمبراطورُ لويسُ الحليم ، ملِكُ فرنسا ، سيِّءَ الإِدارة ، ضعيف الإِرادة ، فقسمَ مملكَتَه بين أولادِه الثلاثة ، وسلّم إلى كلٍّ حِصَّتَه . ثم جاءَه ولدٌ رابع ، فأرادَ أن يُعيدَ القِسمة ، ليُعطِيَ لولَدِه الرّابع نصيبا ، فثارَ أبناؤُه الثلاثةُ عليه ، وخلعُوه ؛ ولكنْ

سَرعانَ ما عادَ غلى عرشِه ، بعدَ أن فقدَ هَيبَته وسَطْوَته .

رأى عبدُ الرَّحمن القلاقِلَ التى تُعانِيها فرنسا ، والقِتالَ الدائِرَ بينَ لويسَ وأبنائِه ، فانطَلَقَتْ جيوشُ عبدِ الرَّحمنِ تجتاحُ البلادَ الواقِعةَ تحتَ الاحتلالِ الفَرنسىّ ، فى جبال البيرانيه ، وسار أسطولُ المسلمينَ من تَركُونَة ، يعاوِنُه أسطولٌ آخرُ انطلقَ من جَزِيرَتى مَيُورقَة ويابِسة ، وهاجَمَ المسلمونَ مرسِيليا ، ونزلُوا فى نواحِيها ، واستولَوا على ضواحيها ، وساقُوا جميعَ الرِّجال أسرى .

وكان فى أحدِ الأديرةِ راهباتٌ يرقُبنَ تقدُّمَ المسلمينَ فى وجَلٍ وخَوف ، وكُنَّ يخشينَ اعتداءَ الغُزاةِ عليهِنَّ ، وتلطِيخَهُنَّ بالعار ، فرأت أُوزِيبيا ،

رئيسةُ دَيرِ الرّاهبات ، أن يُشَوِّهْنَ خِلْقَتَهنَّ ، حتى يُصبِحنَ دَميماتٍ ينفِرُ منهنّ الغزاة ، وقد فعلْنَ ما رأتْ رئيسةُ الدّير ، ومنذُ ذلكَ الوقت صارتْ رئيسةُ ديْرِ الرّاهباتِ قِدّيسة ، وأُطلِقَ عليها سانت أوزيبيا .

٣

وماتَ الإمبراطورُ لويسُ سنة ٨٤٠ ، فوقعَ الخلافُ بينَ أولادِه ، واغْتَنَمَ عبدُ الرّحمنِ هذه الفُرصة ، فأرسلَ المسلمينَ لغزْوِ فرنسا ، فدخَلُوا من مصبِّ نهرِ الرُّون ، وعاثُوا فى مدينةِ آرلَ ونواحِيها . وبعثَ العساكِرَ بقيادَةِ موسى بن موسى ، عامِلِ تُطِيلَة ، فراحُوا يتقدّمونَ حتى بلغُوا أرضَ برطانية . والتقَى المسلمونَ بالفَرنسِيِّين ، فلم يستطِع

الفَرنسيُّونَ صَبرا ، فانهَزَمُوا ، وعـادَ موسـى بالغنـائِمِ والأسلاب .

وساءَتِ الأحوالُ فى فرنسا ، واجتاحتْها الحُـروبُ الدَّاخليَّة ، وتقاسَـمَ جنوبِىَّ فرنسـا ثلاثـةُ ملـوك : الإمبراطور لوثر ، والملـك شـارْلُ الأصلَـع ، والملكُ الشـابُّ بيبين ، ابـنُ بيبنَ الـذى كـانَ مِلكًـا علـى أكتيانيا . فترك عبدُ الرَّحمنِ أعـداءَه يتقـاتَلُون ، وراحَ يوطِّد مُلكَ الأندَلُس ، فاتَّخذَ القُصـورَ والمُتنَزَّهـات ، وجلبَ إليها المياهَ من الجبال ، وأقامَ الجسورَ ، وبنـى الجوامِع ، وراح يزيدُ فى جامع قُرطُبة ، وسادَ عصرَه الهُدوء ، واحتجبَ عن العامَّـة ، وكـان يقضِـى وقتَـه بينَ جوارِيه الحِسان ، فقد كان كثيرَ المَيلِ للنِّساء .

وحـفَّ بـه الشُّعراءُ والمُغنُّـون ، فكـانَ أوَّلَ مـن أحدثَ ذلك بالأندَلُس .

٤

وولِعَ عبدُ الرّحمنِ بجاريَتِه طَرُوب ، وأحبّها حبًّا شديدا ، فكان يقضِي أوقاتَه معها ، وبلغَ من هُيامِه بها ، أن أعطاها حَلْيًا قِيمَتُه ألفَ دينار ، فقيل له :

ـ إنَّ مثلَ هذا لا ينبغي أن يخرُجَ من خِزانةِ الملك .

ـ فقال في وَجْد :

ـ إنَّ لابِسَه أنفَسُ منه خطرا ، وأرفَعُ قَدرا ، وأكرمُ جوهَرا ، وأشرفُ عُنصُرا .

وقد تدلّه فيها حبًّا ، حتّى إنّه كان يترنّم :

إذا ما بدَتْ لى شمسُ النّهارِ   طالِعةً ذكّرتْنى طَروبا
أنا ابنُ المَيامِينِ من هاشمٍ   أشُبُّ حروبًا وَأطْفِى حُروبا

وخرجَ غازِيًا يوما ، وطالت غيبتُه ، فاشتدَّ شوقُه ، فراح يكتبُ إليها وهو فى عسكرِه :

عدانِيَ عنك مَزارَ العِدا   وقودى إليهم سهامًا مُصيبا

فكم قد تَخطّيتُ من سَبْسَب ولاَقيتُ بعدَ حــروبٍ دروبا
ألاقى بوجهِى سُمومَ الهجيـ ـرِ إذ كاد منه الحَصى أن يذَوبا

٥

وأغضَبها الأميرُ يومًا ، فهجَرَتْه وصَدَّتْ عنه ، وأبتْ أن تأتِيَه ، ولزِمَتْ مقصُورَتها ، فاشتدَّ قَلَقه لهجرِها ، وضاقَ ذرعُه من شوقِها ، وراح يبذُلُ ما فى وُسعِه ليترضّاها ؛ ولكنّها ظلّت على الصَّدّ ، بعث إليها خُصيانَه ، يلتمسُونَ منها أن ترضَى عن الأمير ، وأن تعودَ إلى الوِصال فأغلَقَتْ بابَها فى وجوهِهم ، فعادُوا إلى الأمير مطأطئى الرُّءوس .

وقال لهم عبدُ الرَّحمن :

ـ ماذا وراءَكم ؟

قالوا فى صَوتٍ خافت :

ـ لنْ تخرُجَ طائِعة ، ولو انتهى الأمرُ إلى القَتل .

فأطرقَ الأميرُ بُرهَة ، ثم قال :

ـ وما العمل ؟

قال أحدُ خُصيانِه .

ـ اسمَحْ لنا يا مولانا أن نكسِرَ البابَ عليها .

فقال الأميرُ فى غضب :

ـ إيّاكم وفِعلَ ذلك .

ووقفَ مُضَرُ الخَصِىّ ، الذى كانت طَروبُ تُبْرِمُ الأمورَ معه ، فلا يردُّ عبدُ الرّحمنِ شيئا مما تُبرِمُه ، صامتًا لا ينبِسُ بكلمة ، فالتفتَ عبدُ الرّحمنِ إليه ، وقال :

ـ تكلَّم يا مُضَر ، ماذا نفعل ؟

ـ تَرضَّها يامولاى ، اغمُرها بإحسانِكَ تنسَ إساءَتك .

فأمَرَ عبدُ الرَّحمن خُصيانَه أن يسُدُّوا البابَ عليها من خارِجِه ببِدَرِ الدَّراهم ، ففعلوا وبَنوا عليها بالبِدر . وجاء عبدُ الرَّحمنِ حتّى وقفَ بالباب ، وهتفَ فى وجد :

ـ افتَحى يا طَروب ، افتحى ولك جميعُ ما سُدَّ به الباب .

وفتحتِ الباب ، فانهارتِ البِدرُ فى بيتها ، فوقفتْ تنظُرُ إلى المالِ المُتَدَفِّق إلى حُجرَتِها كالسَّيلِ فى دَهَش ، ثمَّ انطَلَقَتْ إلى الأمير ، فأكَبَّت على رِجلِه تُقَبِّلُها .

وطارَ صِيتُ عبدِ الرَّحمن ، حتى بَلغَ بغداد ، وسمِعَ زِرياب ، وكان من أعلامِ المُغنّينَ بالشّرقِ بحفاوَةِ عبد الرَّحمنِ بالشُّعراء والمُغَنّين ، فقرَّرَ الرَّحيلَ إلى الأندَلُس .

كان زرياب أسودَ اللّون ، فصيحَ اللّسان ، شاعرًا مطبوعا ، وأخذَ الغِناءَ عن المَوصِليّ ، وبرز فيه ، حتى خَشِيَ على نفسِه عاقبةَ هذا التّفوُّق ، لمنزِلةِ المَوصِليّ من الخليفةِ الرَّشيد ، فانسلَّ إلى الأندلُس ، وقدِمَ على عبد الرَّحمن سنةَ ستٍّ ومِائتَين هجرّية ، فأكرَمَه عبدُ الرَّحمن ، وأحسَنَ وِفادَته ، وغمَرَه بفَيضِ إنعامِه .

وذاعَ اسمُ زِرياب في الأندَلُس ، وصارُوا يُحاكونَه حتى في مَلبَسِه ، وينقُلونَ أخبارَه ، وكان يجرِي في الغِناء مجرى المَوصِليّ في العراق ، وصارَ عُمدَةَ المُغنّين ، وراحَ يتَفَنّنُ في الأصوات . وقد ألهَمتْه البيئةُ الجديدةُ الغنيَّةُ برَوعةِ الطَّبيعةِ وجمالِها روائعَ الألحان ، ورقّقَتْ طَبعَه ، فنهَضَ بصناعةِ الغناء في الأندَلُس ، واختَرعَ للموسِيقَى نظامًا خاصًّا جديدا ، وأضافَ إلى العُودِ وَترًا خامسا ، وكان قبلَه على أربَعةِ أوتار ، ووَضَعَ طُرُقًا للغِناء ، أصبَحتْ عِلمًا خاصًّا اشتهَرَتْ به الأندلُس ، وتدَفّقَتِ الأموالُ عليه ، حتى قُدّرَ دخلُه كلَّ عام بنحوِ أربعةِ آلافِ دينار .

كانَ التّنافُس شديدًا بينَ الخُلفاء العبّاسِيّينَ وأمراء الأندَلُس ، فكان مُلوك أوربَّا يجدونَ فى هذا التّنافُس متنفّسًا لهم . فإذا شَدَّ أمراءُ الأندَلُسِ عليهم ، عقدُوا المُعاهَداتِ والمَواثِيقَ مع خُلَفاء بغداد ، وإذا قاتَلَهم الخُلفاءُ ، مالُوا إلى أمَراءِ الأندلُس ، فكان ملوكُ أوربَّا يقْوونَ بذلك ، على حين تتشتَّتُ كلِمةُ المسلمين .

وفى سنة ٢١٧ ضَيَّقَ المسلمونَ الخِناقَ على القُسطَنطِينيَّة ، فكتب ملكُها تَوْفيل إلى المأمون : « وقد رأيتُ أن أتقَدَّم إليكَ بالمَوعِظة التى يُثبِّتُ اللّهُ بها عليك الحُجَّة من الدُّعاء لك ولمن معك إلى الوَحدانِيَّة ، والشّريعَةِ الحَنيفِيَّة ، فإن أبَيتَ ففِديَةٌ توجبُ ذِمَّة ، وتُثبتُ نظرة ، وإن تَركْتَ ذلك ، ففى

يقينِ المُعايَنةِ لنعوتِنا ما يُغنِى من الإبلاغِ فى القول ، والإغراقِ فى الصِّفة ، والسَّلامُ على من اتَّبَع الهُدَى » .

ومات المأمون ، ووقعت حروبٌ تَشيبُ من هولِها الوُلدانُ بين المعتصِم وتوفِيلَ ملكِ الرُّوم . فرأى تَوفيلُ أن يستَفِيدَ من الجَفْوَةِ بين بَغداد وقُرطُبة ، فبعثَ إلى الأميرِ عبد الرَّحمنِ بهدِيَّة ، يطلبُ مُواصَلَته ، ويُرَغِّبُه فى مُلكِ سَلَفِه بالمَشرق ، ذلك المُلكِ الذى استولَى عليه العبَّاسيُّون . وما كان تَوفِيلُ يفعلُ ذلك حبًّا فى عبد الرَّحمن والأمويِّين ، بل بُغضًا فى العَبَّاسِيِّين ، الذين كانوا يستَلُّونَ مُلكَه ، ويطوونَه تحتَ قدَمَيه .

وكافأه عبدُ الرَّحمنِ على الهَدِيَّة ، وبعثَ إليه يَحيى

الغَزال ، من كِبارِ أهلِ الدَّولة ، وكان مشـهورًا فى الشِّعرِ والحِكمة ، فراحَ يُقَرِّبُ بينَ مَلكِ القُسطنطينيَّةِ وعبدِ الرحمن نِكايَةً فى خُلفاءِ بنى العَبَّاس ، فشـاعَتِ الفُرقَةُ بين المُسلمين ، وراح مُلوكُ أوربَّا يـترقَّبُونَ فرصَتهم ليضرِبوا خُلفاءَ بغداد وأمراءَ قُرطبة معا .